وفلسفة ابن طفيل

بقلم الاب توتل اليسوعي

١

عني الافرنج بقصة حيّ بن يقظان عناية سبقونا فيها الى التفتيش عن ذلك المؤلف وطبعه ، ونقله الى مختلف لغاتهم ، وتفسيره . في السنة ١٦٧١ ، كان المستشرق الانكليزي پوكوك (Pocock) اول من طبعه في العربية أخذًا عن مخطوط محفوظ في مكتبة اوكسفرد ، وفي السنة ١٧٠٠ أعيد طبع الكتاب . وفي السنة ١٩٠٠ ، نشرَ لاون غوتيه الافرنسي ، المتعاطي تدريس الفلسفة في معهد الآداب العليا في الجزائر ، الكتاب ذاته بطبعة علمية ، متقنة مطابقة لأصل مخطوط اكتشفه في مدينة الجزائر ، واستعان عليه بطبعة پوكوك ، وبطبعات ظهرت في مصر ، وفي الاستانة .

ونُقل الكتاب الى اللاتينية ، والهولندية ، والالمانية ، والانكليزية ، والاسبانية ، والفارسية ، واعيد طبعه في بعض تلك اللغات مرات . وسبق موسى الناربوني اليهودي ، ونقل الكتاب الى العبرية سنة ١٣٤٩م ، وعلق عليه ، فساعد من اتى بعده على فهم ابن طفيل وغيره من فلاسفة العرب .

وفي القرون الثلاثة الاخيرة ، ولع الافرنج ولعاً شديدًا بقصة حيّ بن يقظان ، فقرأوها واخذوا عنها موضوعها وحوادثها ، وحذوا حذوَ ابن طفيل . وعند مقابلتنا بين تلك القصة وبين ما كُتب من امثالها كقصة روبنصون كروزوي ، وكمؤلفات جان جاك روسو في نشأة الانسان بمعزل عن الحياة الاجتماعية ، وتطوّر حياته الفكرية بالاكتشاف التدريجي في احوال الكون ،

وكاقوال ديكارت في سلسلة البراهين واستنباط النتائج من المقدمات ، لا يسعنا الا الميل الى ان هؤلاء الكتبة اطلعوا على كتاب ابن طفيل ، إما في متنه العربي او في احدى ترجماته ، واقتبسوا عنه . وفي السنة ١٦٥٠ ، ألف الاب بلتزار غراسيان اليسوعي الاسباني كتاباً عنونه « الكريتيكون » وضمنه حكماً واقوالا غايتها حث القراء على الزهد بالعالم تأسياً بحي بن يقظان .

وآخر ما انتهى الينا من عناية الافرنج المحمودة بهذا الكتاب الممتع هو ترجمته الانكليزية التي ظهرت حديثاً في مجموعة جميلة تولّى نشرها السيد دنيسون روس ، مدير المعهد اللوندني الشرقي ، وعنوانها « كنز القصص الشرقية » « *The Treasure House of Eastern Story* » وكتاب ابن طفيل حلّ في الحلقة الرابعة من المجموعة ، عُني بطبعه ، وتعليق حواشيه ، وتصديره بمقدمة مسهبة في حياة ابن طفيل وموجز تاريخ الفلسفة العربية ، السيد اسكندر س. فولتون (A. S. Fulton) المساعد في الامانة على الكتب الشرقية في المتحف البريطاني . اما الترجمة الانكليزية فهي لسمان اوكلي (Simon Ockley) ؛ نقلها عن العربية سنة ١٧٠٨ [1] . أهدي الينا الكتاب ، فرحّبنا به ، وسرّنا ان نعرّف به القرّاء .

ولما كان امره مهملاً ، ولم يطبع في سورية ولبنان قط ، وطبعاته في مصر وفي الاستانة دون ما يرجى لمثل هذا الكتاب من الاتقان والعناية ، رأينا ان نخصّه بمقال عسى ان نمهّد السبيل الى طبعه في بلادنا ؛ فأتينا على ترجمة ابن طفيل ، وعلى ذكر شيء من اقواله يساعدنا في الوقوف على اسلوبه ، وفي التمتع بمحاسنه اللغوية ، والنظر في تعليمه الفلسفي ؛ والمقابلة بينه وبين التعليم الفلسفي المدرسي القويم ، فتتميز لنا وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين التعليمين . ومن الواجب ان ينبّه اليها تلامذة الفلسفة ، وقصة حي بن يقظان مذكورة في برنامج

---

(١) The History of Hayy ibn Yaqzan *by* Abu Bakr Ibn Tufail *Translated from the Arabic by* Simon Ockley. *Revised with an Introduction by* A. S. Fulton. *London, Chapman and Hall Limited.* 1929.

البكالوريا ، وفيها خلاصة تاريخ فلاسفة الاسلام ومعالجة المشكل الاعظم الذي طالما شغل الافكار في القرون الوسطى ، وهو الوفاق بين الايمان والعقل ، وبين الدين والفلسفة .

نشأة ابن طفيل

هو ابو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي ، ويكنى ايضاً ابا جعفر باسم ابنه الثالث ويعرفه الافرنج باسم « ابو بكر » ، او ابو باسر ، طبقاً للفظهم اللاتينية « Abubacer » . لم يبلغ الينا عن حياة هذا الرجل الكبير الا ما ذكره المؤرخون عرضاً . ولد في وادي آش في الاندلس ، في موقع مدينة غاديكس في اسبانية الحالية ، على زهاء ٦٠ كيلومتراً من شمالي قرطبة . وان ما يُتاح لنا ان نتحققه في قصة حي بن يقظان من دقة الفكر ، وبعد مرامي النظر ، وتسلسل الافكار ، مع سعة المعارف ، ومتانة اللغة ، ووفرة الالفاظ ، وصدق مطابقتها للموضوع ، وتحبيب الفضيلة والزهد في زخارف الدنيا ، لشاهد مؤلفنا بكرامة الاصل وحسن الثقافة . ولا بدّ ان من اختاره الخليفة وزيراً وطبيباً له ، نشأ في أسرة نبيلة غنية وفّرت له وسائل التعلم .

روى سركيس في معجم المطبوعات وغيره من المؤلفين ان ابن طفيل قرأ على ابي بكر الصائغ المعروف بابن باجة ، وهذه الرواية صادرة عن كتاب « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » للمراكشي ، (ص١٧٢ ، طبعة دوزي) . وقد نقدها ابن طفيل ذاته ، في مقدمة قصة حي بن يقظان ، لما قال عن ابي بكر بن باجة ، انه « لم يعرفه » . ولعل المراكشي اراد القول : ان ابن طفيل تلقن العلم في مؤلفات ابن باجه « ككتابته في النفس وتدبير المتوحد ، والمنطق ، وعلم الطبيعة » . ولا يبعد عن المعقول ان يكون ابن طفيل قد ابتدأ العلم على بعض الاساتذة ، ورقي مدارجه بمطالعاته الشخصية عن غير استاذ ، شأن الكثيرين من النوابغ ، وهو الواضع سيرة حي بن يقظان الملقّب « بالفيلسوف المتعلم بذاته » « *Le philosophe autodidacte* » هذا وقد سُمّي ابن طفيل الاندلسي ، والقرطبي ، والاشبيلي اشارة الى معيشته في الاندلس ، واقامته في

قرطبة واشبيلية مدينتي العلوم والمعارف .

وتقلب تلامذة نجباء كابي اسحق البطروجي صاحب التأليف في علم الهيئة ، وعلم الطب في قرطبة . وتنقل من وظيفة الى وظيفة ، فمن كتابة اسرار ولاية قرطبة ، الى الكتابة في ديوان ابي سعيد (٥٤٩هـ = ١١٥٤ م) صاحب غرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء وسبتة وطنجة ، الى الوزارة على ايام الخليفة ابي يعقوب يوسف الموحدي .

صدر من الخليفة

وكانت دولة الموحدين في أوج عزها ، وسلطانها يلقب امير المؤمنين شأن زميله في بغداد . ولكن شتان بين خليفة وخليفة . فهذا مخفوض الجناح تحت سطوة الامراء السلجوقيين ليس له من الملك الا الخيال ، وذاك نافذ الكلمة ، قوي الشوكة ، مطاع في الزمنيات والروحيات ، وهو من سلالة عبد المؤمن مناضر المهدي بن تومرت . ولم تكن الحروب المتواصلة بينه وبين الاسبان على حدود الاندلس الشمالية والجهاد الدائم بين العرب والافرنج عائقاً عن ارتفاع شأن الدولة الموحدية . وكان الخليفة ابو يعقوب يوسف صاحب دهاء وعزم وسياسة ، فصد عن الهجوم اعداء الخارج ، ونشر ألوية السلم والامن في الداخل ، وامر الناس بالانصراف الى اشغالهم عن الجدال والمناقشات بالدينيات ، خشية تكدير الجو الاسلامي واحداث البلبال في معتقدات العامة ، لكنه اتخذ خاصته من الفلاسفة ميلاً منه الى المعارف ، واستنفاعاً بمن رأى فيهم الكفاءة للمشورة والنصح والتدبير . فقرب اليه ابن طفيل وكان « شديد الشغف به والحب له . يبقيه عنده في القصر اياماً ، ليلاً ونهاراً . »

لم يبلغ الينا من اقواله في السياسة ومن اخباره في التدبير الا القليل . لكن ذلك القليل ينوه بما في ابن طفيل من تنزهه عن الطمع بالاباطيل الفانية ، وإيثاره المصالح العمومية على مصالح آل بيته ، واستخدامه نفوذه عند السلطان في سبيل احياء المعارف وتشجيع رجال العلم عليها . فكأني بالوفود يتوافون اليه لينالوا بشفاعته نعمة او وظيفة ، فيتفرس بهم ، وبنظرة تخترق الصدور يميز فيهم

بين القويّ والضعيف ، والمقتدر والعاجز ، ولا ينخدع بالظواهر ولا يدور في خلده زعم المحدثين الزائف ، المطالب جميع الناس بالمساواة المطلقة والحق في الحكم والتحكيم والامر والتأمير ، وهو القائل :

ما كل من شمّ نال رائحةً ، للناس في ذا تباينٌ عجبُ
قوم لهم فكرة ، تجول جم بين المعاني ، اولئك النجب .
وفرقة في القشور قد وقفوا ، وليس يدرون لبّ ما طلبوا . . .
لا يتعدّى امرؤ جبلّته قد قسمت في الطبيعة الرتب .

فلا محاباة وجوه ، ولا تفضيل ذوي قربى في توزيع المراتب . قيل انه رزق ثلاثة بنين : بكر ويحيى وجعفر ، ولا يعرف التاريخ ان ابامم سعى في تقليدهم وظيفة من الوظائف .

ابو طفيل وابن رشد

بل يذكر التاريخ جهود ابن طفيل في جمع الكتب ، وتقريب العلماء وجلبهم الى الخليفة « من جميع الاقطار » . ودوّن المراكشي خبر اتصال ابن رشد الفيلسوف بالخليفة ، بواسطة ابن طفيل وسعيه . فانه « نبّه الخليفة عليه وعرفه بقدره » ، ولم يأَ الشيخ ان يتنحى للغلام في مجلس الفلاسفة فيقدّمه على ذاته ويوصي به السلطان ، ويقلّده قصب السبق على نفسه . وجاءت الحادثة التي ذكرها المراكشي عن دخول ابن رشد على السلطان بمنيّة ابن طفيل محطّةً في تاريخ الفلسفة العامّ . فدفعت مفتتر ارسطو وشارحه الكبير في ميدان التأليف . ولا بد من رواية الخبر ، وهو عنوان تواضع الشيخ ونبوغ الفتى واحتشامه ، وكلا الفيلسوفين متباريان في تفضيل احدهما صاحبه على نفسه . والخبر ، على ايجازه ، صورة حياة الافكار وتزعة الامبال في العصر الذهبي العربي . نشره فرح انطون في كتابه على ابن رشد وفلسفته (ص ١٢) معرّباً عن نصّ ابن صاعد ، واليك الاصل العربي :

قال ابو الوليد بن رشد :

« لما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب وجدته هو وابو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما . فاخذ ابو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي ويضمّ بفضله الى ذلك اشياء لا يبلغها

قدري. فكان اول ما فاتحني به امير المؤمنين ، بعد ان سألني عن اسمي واسم ابي ونسبي ، ان قال لي : « ما رأيكم في السماء ، يعني الفلاسفة ، اقديمة هي ام حادثة ؟ » فادركني الحياء والخوف . فاخذت اتلثّل ، وانكر اشتغالي بعلم الفلسفة ، ولم اكن ادري ما قدّر معه ابن طفيل. ففهم امير المؤمنين مني الروع والحياء ، فالتفت الى ابن طفيل ، وجعل يتكلم على المسئلة التي سألني عنها ، ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وافلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم. فرأيت منه غزارة حفظ لم اظنها في احد من المشتغلين بهذا الشأن ، المتفرّغين له. ولم يزل يبسطني حتى تكلمت . فعرف ما عندي من ذلك. فلما انصرفت امر لي بمال وخلعة سنية ، ومركب.

وقال ايضاً ابو الوليد :

« استدعاني ابو بكر بن طفيل يوماً فقال لي : « سمعتُ اليومَ اميرَ المؤمنين يتشكى من قَلَق عبارة ارسطوطاليس او عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض اغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يُلخصها ويقرب اغراضها ، بعد ان يفهمها فهماً جيداً ، لقرب مأخذها على الناس . فان كان فيك فضل قوّة لذلك فافعل ؛ واني لأرجو ان تفي به لما اعلمه من جودة ذهنك وصفا قريحتك وقوة تزوعك الى الصناعة ؛ وما يمنعني من ذلك الا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو اهمُّ عندي منه . » قال ابو الوليد : «فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخّصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس.»

قال المراكشي : « وقد رأيت انا لابي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع ، لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء والعالم ، ورسالة الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية ، وكتاب الحسّ والمحسوس . ثم لخصها بعد ذلك وشرح اغراضها في كتاب مبسوط في اربعة اجزاء. » (١

ويستنتج من فحص « غوتيه » هذين المتنين ان الاول سبق الثاني في الزمان ، وجرت حادثته في مراكش في اوائل السنة ١١٦٩ م ، على افتراض ان ابن رشد اقبل مع وفود الاندلس لتحية الخليفة عند اتخاذه لقب « امير المؤمنين». وكان عمر ابن رشد ٤٢ سنة ، وكان ابن طفيل قد بلغ الشيخوخة وعمره بين ٦٣ و ٦٨ عاماً ، فيكون وُلد نحو سنة ١١٠٥ .

وفي السنة ١١٨٢ ، تنحى ابن طفيل لابن رشد عن وظيفة تطبيب الخليفة ، وظل في جوار امير المؤمنين وموالاته . وتوفي ابو يعقوب يوسف في

١) المراكشي : المعجب ، طبعة دوزي ، ص ١٧٤-١٧٥

١٣ تموز ١١٨١ ، في الاندلس ، من جراحات نالته في حصاره مدينة شنتارين في البرتغال . فخلفه احد ابنائه ، ابو يوسف يعقوب ، واحتفظ بحمية ابيه وكتبه ووزرائه .

زهده ، وفاته

يفيدنا عبرة وقدوة صالحة ان نتصور ابن طفيل في اواخر ايامه شيخاً مهيباً ، نال من مواهب الطبيعة ومن زخارف الدنيا ما لا يناله الا القليلون من البشر ، وهو الحظي المقرب من السلطان ، والسيد المطاع من الناس ، والاستاذ المقول بقوله . فلم يغتر بغرور الحياة ، ولا ابتسمت له وعرضت عليه محاسنها وملذاتها ، ترفع عنها متمسكاً باهداب الفضيلة :

فامسكتُ ، لا مستغنياً عن نوالها ، ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما .

وشمر بدنو اجله ، فانغرق في الزهد ، واختلى الى نفسه مفكراً بالعالم تفكير الفيلسوف البصير بعلل الاشياء ، المحتقر اباطيل الفانية ، الزاجي سعادته من مراحم ربه ، وهو القائل :

يا باكياً فرقة الاحباب عن شحط ، ملا بكيت فراق الروح للبدن
نورٌ تردد في طين الى اجل ، فان فاز علواً ، وخلى الطين للكفن
يا شدة ما افترقا من بعد ما اعتنقا ، اظنها هدنة كانت على دخن ! (١)
ان لم يكن في رضى الله اجتماعهما فيا لها صفقة تمت أعلى غبن .

وتوفي ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ . (١١٨٥) ، في مراكش ، وحضر جنازته السلطان ابو يوسف يعقوب .

---

(١) هدنة على دخن : اي سكون لعلة لا لصلح

(البحث صلة)